كمال الدين بن يونس الموصلي

من مشاهير العلماء المسلمين
في القرن السابع الهجري ٥٥١ - ٦٣٩ هـ

للأستاذ: فاضل خليل ابراهيم

أسهمت الموصل[١]، وعبر تاريخها الطويل، في رفد الحضارة الإسلامية، بإنجازات ثقافية عديدة، من خلال ظهور الكثير من العلماء، الذين درسوا علوم عصرهم، وأتقنوها، وأبدعوا فيها، وأضافوا إليها.

ومع بداية القرن السابع الهجري، أصبحت الموصل واحدة من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، ونافست في ذلك بغداد ودمشق والقاهرة، حيث ذاع صيتها، وأقبل طلاب العلم ينهلون من عطائها الثرى.

ومن أشهر العلماء، الذين برزوا في هذا العصر، وحملوا راية العلم فيه، كمال الدين أبو الفتح[٢] موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة بن مالك[٣] العقيلي[٤]. ولد في الموصل سنة ٥٥١هـ وتوفي فيها سنة ٦٣٩هـ.

نشأ كمال الدين في أسرة علمية، حيث كان والده رضي الدين يونس[٥]، أحد الفقهاء المشهورين في الموصل، وكذلك أخوه عماد الدين محمد[٦]، الذي «كان له صيت عظيم في زمانه، وقصده الفقهاء من البلاد الشاسعة للاشتغال، وتخرج عليه خلق كثير صاروا كلهم أئمة مدرسين يشار إليهم»[٧]، أما ابنه شرف الدين أحمد[٨]،

فقد «كان كثير المحفوظ، غزير المادة، متفنناً في العلوم»[٩].

بدأ كمال الدين رحلته العلمية من هذا البيت، حيث تفقه على والده، ثم درس اللغة العربية وآدابها في الموصل على يد يحيي بن سعدون القرطبي، وبعد ذلك توجه إلى بغداد سنة ٥٧١هـ، والتحق بالمدرسة النظامية، فدرس الأصول والخلاف في الفقه على يد إسماعيل القزويني، ودرس الأدب على يد عبدالرحمن بن محمد الأنباري[١٠]. أما دراسته للعلوم الأخرى والتي اشتهر بها فيما بعد كالفلسفة والرياضيات والفلك، فلا نكاد نعرف عنها شيئاً، ويظهر أنه قد تلقاها من علماء بغداد المشهورين ــ آنذاك ــ خارج المدرسة النظامية.

وبعد تخرجه من المدرسة، عاد إلى الموصل، وهو يحمل محصلة علمية هائلة، أشاد بها الكثيرون، وقد توزعت اهتماماته على شتى فروع المعرفة الشرعية والأدبية والعلمية الصرفة، حتى أصبح من العلماء الموسوعيين. وإن قراءة سريعة لآراء من كتبوا عنه، سواء من معاصريه أو الذين أرخوا له، تُبَين لنا الدرجة العلمية الرفيعة التي بلغها، فقد وصفه ابن أبي أُصيبعة بأنه «علاّمة زمانه، وأوحد أوانه، وقدوة العلماء، وسيد الحكماء، قد أتقن الحكمة وتميّز في سائر العلوم»[١١]. وقال عنه القزويني: «كان جامعاً لفنون العلوم، عديم النظير في زمانه، في أي فن باحثته فكأنه صاحب ذلك الفن من المنقول والمعقول»[١٢]. وبلغت هذه الآراء حد الإطراء والمبالغة الكبيرة فيه، فعندما سئل تقي الدين بن الصلاح[١٣] ــ أحد معاصريه ــ عن شيوخ كمال الدين، أجاب: «هذا الرجل خلقه الله إماماً عالماً في فنونه، لا يقال على من اشتغل، ولا من كان شيخه، فإنه أكبر من هذا !! »[١٤]. وشارك المستشرق سارتون (Sarton) مؤرخينا، في مدحهم هذا، بقوله: «إن كمال الدين، من أعلم علماء زمانه، ومن كبار المعلمين ــ أو هو المعلم العظيم»[١٥].

أما العلوم التي اهتم بها، فيأتي الفقه في مقدمتها، حيث اشتهر بتبحُرّه في المذهب الشافعي «فكان فيه أوحد زمانه»[١٦] وهو «شيخ الشافعية في الموصل»[١٧]، كما أتقن مذهب أبي حنيفة[١٨]. واشتهر أيضاً في الحديث والتفسير، فله فيهما «يدٌ جيدة»[١٩]. ونظراً لما يتمتع به من منزلة

دينية ومكانة علمية بين الناس، فقد كان «مرجع أهل الموصل وما والاها في الفتاوى»[٢٠].

ولم يكتف كمال الدين في دراسته لأصول دينه ومذهبه، بل اطّلع على الأديان السماوية الأخرى، وقرأ كتبها المقدسة وتفسيراتها، وبلغ فهمه فيها أن أهل الذمة كانوا «يقرؤون عليه التوراة والإنجيل، وشرح لهما هذين الكتابين، شرحاً يعترفون أنهم لايجدون من يُوضحها لهم مثله»[٢١].

وقد اهتم عالمنا ـ أيضاً ـ بالتاريخ «فكان يحفظ من التواريخ، وأيام العرب ووقائعهم، والأشعار، والمحاضرات، شيئاً كثيراً»[٢٢]. كما بحث في اللغة العربية[٢٣]، وأبدع في نظم القصائد[٢٤]، فكان «له شعر حسن»[٢٥].

أما **الفلسفة والمنطق**، فكان اهتمامه بهما محدوداً، ذلك لأن الناس في تلك الفترة ـ على مايبدو ـ كانت تكره قراءتها، فقد روى السبكي «أن ابن الصلاح سأله أن يقرأ عليه شيئاً من المنطق سرا... فقال له: يافقيه المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن. فقال له: ولم يامولانا؟ فقال: لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون لكل من اشتغل بهذا الفن إفساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك... فقبل إشارته وترك قراءته»[٢٦].

ولم يقتصر كمال الدين في علمه على الأدب والفقه، بل تجاوز ذلك إلى العلوم الصرفة كالرياضيات والفلك والطب والكيمياء. فهو كما قال عنه ابن أبي أصيبعة «يقرأ العلوم بأسرها»[٢٧].

ففي **الرياضيات**، درس إقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة[٢٨]، وألّف فيها، ولمّا ذاع صيته في هذا العلم، أخذت الرسائل تنهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له، يقول ابن خلكان: «كنت بدمشق، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكل عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتبها في درج، وسيّرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف خفيّها، وأوضح غامضها»[٢٩]. كما وصلته رسالة أخرى من أوربا أشار إليها القزويني بقوله: «ومن عجيب مارأيت منه أن الفرنج في زمن الملك الكامل بعثوا إلى

الشام مسائل أرادوا جوابها: منها طبية، ومنها حكمية، ومنها رياضية. أما الطبية والحكمية فأجاب عنها أهل الشام، والهندسية عجزوا عنها. والملك الكامل أراد أن يبعث جواب الكُل، فبعثوا إلى الموصل إلى المفضّل بن عمر الأبهري أستاذنا، وكان عديم النظر في علم الهندسة، فأشكل الجواب عليه، فعرضه على الشيخ ابن يونس، فتفكّر فيه وأجاب عنه، والمسألة هذه نريد أن تُبيّن قوساً أخرجنا لها وتراً، والوتر أخرج من الدائرة عملنا عليه مُربعاً، تكون مساحة المقوّس كمساحة المربع... فكتب برهانه المفضّل وجعله رسالة بعث بها إلى الشام إلى الملك الكامل، فلما مشيتُ إلى الشام رأيت فضلاء الشام يتعجبون من تلك الرسالة، ويثنون على استخراج ذلك البرهان، فإنه كان نادر الزمان»[٣٠].

أما في **علم الفلك**، فقد وصلته ــ أيضاً ــ مسائل، قام بتفسيرها وتوضيح رموزها، بعضها «وردت عليه من بغداد، فحلّها... ونبّه على براهينها»[٣١]، وأخرى من أحد ملوك أوربا، «فكتب له الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها»[٣٢]. ومما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، انه قد عرف أشياء كثيرة من قوانين تذبذب الرقاص، حيث كان الفلكيون يستخدمونه لحساب الفترات الزمنية في أثناء رصد النجوم[٣٣]. ويقول البعض[٣٤]: انه قد سبق العالم «غاليلو» في هذا المجال.

وبالإضافة إلى هذه العلوم التي اشتهر بها، عالمنا، فقد اهتم بالطب والكيمياء[٣٥] التي كان مستغرق الوقت والعقل في حبها[٣٦].

ولم يكن كمال الدين عالماً باحثاً فقط، بل امتهن التدريس في العديد من مدارس الموصل، منها «المدرسة الكمالية»، التي أنشأها في مسجد زين الدين[٣٧]، و«المدرسة العلائية» التي تولى التدريس فيها بعد وفاة أخيه عماد الدين[٣٨]، و«المدرسة القاهرية»[٣٩] و«المدرسة البدرية»[٤٠]. ويبدو أن الفقه هو المادة الأساسية[٤١]، لمنهج التدريس في هذه المدارس، أما العلوم الأخرى التي أشرنا إليها فيما سبق فإضافية. وقد تتلمذ على يديه عدد كبير من طلاب العلم في مختلف فروع المعرفة، جاؤوه من أقطار شتى.

فمن أشهر الذين درسوا عنده، أو تلقوا

أحد العلوم عنه، أو زاروه أو حضروا محاضراته:

١ ـ أثير الدين المفضل أبو عمر الأبهري[٤٢]، على جلالة قدره في العلوم، يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه ويقرأ عليه. وقد شاهده ابن خلكان، بعينه، وهو يقرأ عليه الكتاب المجسطي[٤٣].

٢ ـ موفق الدين عبد اللطيف البغدادي، الذي قال: «دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتي، ولكن وجدت الكمال بن يونس جيداً في الرياضيات والفقه»[٤٤].

٣ ـ جلال الدين البغدادي[٤٥].

٤ ـ أبو ابراهيم يوسف بن ياسين الدقوقي، اشتغل على يد كمال الدين بشيء من علوم الأوائل «وتفقه عليه»[٤٦].

٥ ـ علم الدين قيصر بن أبي القاسم ابن مسافر المعروف بتعاسيف، الذي قال: «لما أتقنت علوم الرياضة بالديار المصرية وبدمشق، تاقت نفسي إلى الاجتماع بالشيخ كمال الدين، لما كنت أسمع من تفرده بهذه العلوم»[٤٧].

٦ ـ نجم الدين القمراوي وشرف الدين المتاني، جاءا من الشام إلى الموصل «فاشتغلا عليه مدة ثم سافرا»[٤٨].

٧ ـ ثاذري الأنطاكي، قرأ على كمال الدين مصنفات الفارابي وابن سينا وحل إقليدس والمجسطي[٤٩].

٨ ـ سويريوس يعقوب بن عيسى بن مرقس شبو، قرأ على كمال الدين المنطق والفلسفة العربية[٥٠].

٩ ـ بلال بن رمضان بن الحسن، قال عنه ابن المستوفي: «فقيه سمعته وأنا صبي في جامع القلعة بأربل يجادل الإمام موسى بن يونس»[٥١].

١٠ ـ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح، حاول أن يتعلم المنطق على يد كمال الدين[٥٢].

١١ ـ أبو العباسي شمس الدين بن خلكان، الذي قال عن نفسه: «رأيته بالموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة، وترددت إليه دفعات عديدة... ولم يتوفق لي الأخذ عنه إلا لعدم الإقامة وسرعة الحركة إلى الشام»[٥٣].

أما بخصوص مؤلفاته، فلا نعرف الشيء الكثير عنها، وقد ردّد المؤرخون عبارات من

قبيل: «وله عدة تصانيف»[٥٤]، «وله مصنفات في نهاية الجودة»[٥٥]. لكنهم لم يشيروا إلى هذه المصنفات. وينفرد ابن أبي أصيبعة في ذلك، حيث يقدم لنا قائمة قصيرة بعناوين هذه المؤلفات[٥٦]، وهي:

١ ـ كتاب كشف المشكلات وإيضاح المعضلات في تفسير القرآن.

٢ ـ شرح كتاب التنبيه في الفقه (مجلدان).

٣ ـ كتاب مفردات ألفاظ القانون لابن سينا.

٤ ـ كتاب الأصول.

٥ ـ كتاب عيون المنطق.

٦ ـ كتاب لغز الحكمة، ويظهر أنه هو الكتاب الذي امتنع عالمنا عن تقديمه لنجم القمراني وشرف الدين المتاني عندما «سألاه، أن يريهما كتاباً قد ألّفه في الحكمة وفيه لغز»[٥٧]. ويُرجح أنه كتاب في الكيمياء نظراً لما تتطلبه من كتمان وسرية وما تتصف به من غموض في المصطلحات.

٧ ـ كتاب الأسرار السلطانية في النجوم. وأضاف بروكلمان إلى هذه القائمة[٥٨]:

٨ ـ رسالة في البرهان على المقدمة التي أهملها أرخميدس في كتابه تسبيع الدائرة وكيفية اتحاد ذلك (مخطوط مكتبة بودليانا ـ انكلترا ورقمها ٩٨٧/٨).

٩ ـ كتاب شرح الأعمال الهندسية (مخطوطة مكتبة أيا صوفيا: استانبول ـ تركيا ورقمها ٢٧٥٣).

ويبدو أن كمال الدين كانت لديه مكتبة عظيمة، تحتوي على كتب في شتى العلوم، حيث كان طلابه يعتمدون عليها. فقد طلب منه بعض زواره[٥٩]، كتباً نادرة لفلاسفة وعلماء معروفين، فوجدوها عنده.

● ● ● ●

«الهوامش الواردة في البحث»

(١) مدينة قديمة تقع على نهر دجلة شمال العراق.

(٢) وهو «أبو عمران» عند ابن أبي أصيبعة، أنظر كتابه: عيون الأنباء ٣٠٦/١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٩٦/٤، والسبكي: طبقات الشافعية ٣٧٨/٨.

(٤) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ١٤٩.

(٥) أنظر ترجمته، ابن خلكان ٢٥٢/٦ ـ ٢٥٣.

(٦) أنظر ترجمته، المصدر نفسه ٣٨٥/٣ ـ ٣٨٦.

(٧) المصدر نفسه ٣٨٥/٣.

(٨) أنظر ترجمته، المصدر نفسه ٩٠/١ ـ ٩١.

(٩) السبكي: ٣٩/٨.

(١٠) ابن خلكان: ٣٩٦/٤، والسبكي ٣٧٨/٨، والذهبي: العبر ١٦٢/٥، وابن العماد: شذرات

الذهب ٥/٢٠٦، واليمني: مرآة الجنان ٤/١٠١.
(١١) عيون الأنباء ١/٣٠٦.
(١٢) القزويني: آثار البلاد ص ٤٦٣.
(١٣) أنظر ترجمته، السبكي: ٨/٣٢٦.
(١٤) المصدر نفسه ٨/٣٨٢، اليمني: ٤/١٠٢.
(١٥) Sarton: Introduction 2/600.
(١٦) ابن خلكان: ٤/٣٩٦، السبكي: ٨/٣٧٩.
(١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/١٥٨، أبو الفداء: المختصر ٣/١٧٨.
(١٨) أبو الفداء: ٣/١٧٨، ابن الوردي: تتمة المختصر ٢/٢٤٦.
(١٩) ابن خلكان: ٤/٣٩٧.
(٢٠) السبكي: ٨/٣٧٨.
(٢١) المصدر نفسه ٨/٣٨٠، وابن خلكان: ٤/٣٩٧، واليمني: ٤/٣٩٧.
(٢٢) ابن خلكان: ٤/٣٩٧.
(٢٣) السبكي: ٨/٣٨٠.
(٢٤) أنظر نماذج من هذه القصائد عند، ابن أبي أصيبعة ١/١٠٨، ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ابن كثير: ١٣/١٥٨.
(٢٥) ابن كثير: ١٣/١٥٨.
(٢٦) السبكي: ٨/٣٨٢.
(٢٧) ابن أبي أصيبعة: ١/٣٠٦.
(٢٨) ابن خلكان: ٤/٣٩٧، اليمني: ٤/١٠٢.
(٢٩) ابن خلكان: ٤/٣٩٩، السبكي ٨/٣٨٣ ـ ٣٨٤.
(٣٠) آثار البلاد: ص ٤٦٣.
(٣١) ابن خلكان: ٤/٣٩٩.
(٣٢) ابن أبي أصيبعة: ١/٣٠٧.
(٣٣) فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٣٠.
(٣٤) طوقان: تراث العرب العلمي ص ٣٩٨.
(٢٥) ابن أبي أصيبعة: ١/٣٠٦، السبكي: ٨/٣٧٩.
(٣٦) الدجلي: الفلاكة والفلاكون ص ٨٤.
(٣٧) ابن خلكان: ٤/٣٩٦.
(٣٨) المصدر نفسه: ٤/٤٠٠.
(٣٩) المصدر نفسه والمكان.
(٤٠) المصدر نفسه والمكان.
(٤١) ابن الفوطي: ١٤٩.
(٤٢) ابن الوردي: ٢/٢٤٦ ـ ٢٤٧.
(٤٣) ابن خلكان: ٤/٣٩٨.
(٤٤) ابن أبي أصيبعة: ٢/٢٠٤.
(٤٥) المصدر نفسه: ١/٣٠٦.
(٤٦) ابن المستوفي: تاريخ أربل ١/٢٢٧.
(٤٧) السبكي: ٨/٣٨٤ ـ ٣٨٥.
(٤٨) ابن أبي أصيبعة: ١/٣٠٧.
(٤٩) ابن العبدي: تاريخ مختصر الدول ص ٤٧٧.
(٥٠) يعقوب: دقائق الطيب ص ١٠٥.
(٥١) ابن المستوفي: ١/٨٦.
(٥٢) السبكي: ٨/٣٨٢، ابن الوردي ٢/٢٤٦ ـ ٢٤٧.
(٥٣) ابن أبي أصيبعة: ٢/٢٠٤.
(٥٤) الذهبي: ٥/١٦٢ ـ ١٦٣، اليمني: ٤/١٠٢.
(٥٥) ابن أبي أصيبعة: ١/٣٠٦.
(٥٦) المصدر نفسه ١/٣٠٨.
(٥٧) المصدر نفسه ١/٣٠٧.
(٥٨) Brockelmann: Ceeschichte..., S.I. P.85.
(٥٩) ابن خلكان: ٤/٣٩٦.

● ● ● ●

«المصادر والمراجع المعتمدة في البحث»

أولاً: المصادر الأولية:

(١) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو اسماعيل أحمد بن يونس (ت ٦٦٨هـ) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (المطبعة الوهبية: ١٨٨٢م).
(٢) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (مصورة عن طبعة دار الكتب).
٣ ـ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (مصر: ١٩٤٨م).

(٤) الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٧٤٨هـ)
العبر في خبر من غبر (الكويت: ١٩٦٦م).
(٥) الدلجي، أحمد بن علي
الفلاكة والفلاكون (مصر: ١٣٢٢هـ).
(٦) السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ)
طبقات الشافعية الكبرى (عيسى البابي الحلبي).
(٧) ابن العبري، غريغوريوس أبو الفتح بن أهرن (ت ١٢٨٦م)
تاريخ مختصر الدول (بيروت: ١٨٩٠م).
(٨) ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مكتبة القدس: ١٣٥١هـ).
(٩) أبو الفداء، تاج المؤيد اسماعيل (ت ٧٣٢هـ)
المختصر في أخبار البشر (دار الطباعة الشاهانية: ١٢٨٦هـ).
(١٠) ابن الفوطي: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة (بغداد).
(١١) القزويني: زكريا بن محمد بن محمود
آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت: ١٩٦٠م).
(١٢) ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية (مصر ـ مطبعة السعادة).
(١٣) ابن المستوفي: شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد الإربلي تاريخ إربل المسمى: نباهة البلد الخامل بمن وَرَدَهُ من الأماثل (بغداد: ١٩٨٠م).
(١٤) ابن الوردي: زين الدين عمر
تتمة المختصر في أخبار البشر (النجف: ١٩٦٩م).
(١٥) اليمني: أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي
مرآة الجنان وعبرة اليقظان (حيدر اباد الدكن: ١٣٣٩هـ).

ثانياً: المراجع العربية:

(١٦) طوقان، قدري حافظ
تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك (القاهرة: ١٩٦٣م).
(١٧) فروخ، عمر
تاريخ العلوم عند العرب (بيروت: ١٩٧٠م).
(١٨) يعقوب: اغناطيوس الثالث
دفقات الطيب (زحلة: ١٩٦١م).

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

(١٩) Brockelmann, Dr. c. - Geschichte der Arabischen Litteratur (Leiden - 1931)
(٢٠) Sarton: George - Introduction to the History of Science (Washington - 1962)